علاقة الفقيه بالسياسة بالجزائر العثمانية من خلال الآداب السلطانية (قراءة في نماذج لرسائل ديوانية بين يوسف باشا والفقيه محمد ساسي البوني)

بن سالم الصالح
باحث في التاريخ العثماني
بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة

الملخص بالعربية:

بعد انتصاب الحكم العثماني بالجزائر سنة 1518م وجدوا صعوبة كبيرة في إقناع أهالي الجزائر بحكمهم وضمان ولائهم، ومن أجل ذلك عمدوا إلى تقسيم التراب الجزائري لمجموعة من البياليك (مقاطعات)، فأقاموا بايلك الشرق بقسنطينة، وبايلك التيطري بالمدية، وبايلك الغرب بمازونة ثم معسكر ثم وهران بعد تحريرها من القبضة الاسبانية سنة 1792م، أما السلطة الفعلية فجعلوها في أيديهم بدار السلطان بالجزائر العاصمة، إلا أن مراهنتهم على الباي لفرض السيطرة على البايلك لم تكن كافية. فقاموا بربط علاقات سياسية وثقافية واجتماعية مع الأسر العلمية والدينية القوية التي تمتلك نفوذا روحيا في نفوس سكان البياليك، فمنحوهم مناصب راقية من الافتاء والقضاء والامامة والتدريس والخطابة وصرة الحرمين الشريفين وقيادة قوافل الحج، فكانت أسرة البوني على سبيل المثال لا الحصر بعنابة عينا لهم وسندا في جلب الولاء ودعم العامة ببايلك الشرق.

الملخص بالانجليزية :

After the rise of the Ottoman rule in Algeria in 1518, they found it very difficult to convince all the people of Algeria by virtue of their allegiance and to do so they divided the Algerian territory into a group of Bialic (provinces). They established Pilek Al Sharq in Constantine, Bailek Titri in Medea, After liberation from the Spanish fist in 1792, and the actual power they made in

their hands in the House of Sultan in Algiers, but betting on Albay to impose control over the Baylk was not enough. They established political, cultural and social relations with the strong scientific and religious families that have spiritual influence in the Bialik population. They gave them high positions of devolution, justice, integrity, teaching, rhetoric, the Custodian of the Two Holy Mosques and the leadership of the Hajj convoys. Loyalty and public support for Baylake East.

يسلط موضوعنا هذا الضوء على ظاهرة الولاء من طرف الأسر العلمية والدينية بباياك الشرق للسلطة العثمانية الحاكمة بايالة الجزائر- علاقة أسرة البوني بيوسف باشا أنموذجا -، وذلك على اعتبار أن هذه الأسرة كانت من أشد الداعمين للحكم العثماني بمنطقة عنابة خاصة وبايلك الشرق عامة، كما ساهمت بشكل كبير في إخماد أكبر ثورة ضد الأتراك بمنطقة الشرق الجزائري، وهي ثورة ابن الصخري التي كانت قاب قوسين أو أدنى من إنهاء الحكم العثماني بالجزائر، وذلك من خلال ثلاثة رسائل ديوانية كانت بين يوسف باشا حاكم الجزائر وشيخ الجماعة بعنابة مُحَمَّد ساسي البوني.

فمن تكون أسرة البوني؟ ومن هم أهم أفرادها؟ وكيف كانت علاقتهم بالحكام الأتراك بالجزائر؟ وماهي أهم الخدمات التي قدمتها هذه الأسرة للسلطة السياسية الحاكمة في ذلك الوقت؟.

أولا/- ملخص الرسائل الثلاثة[1]:

الرسالة رقم 01:

- **المرسل:** حاكم الجزائر يوسف باشا[2]
- **المرسل إليه:** شيخ السنة والجماعة بمدينة عنابة مُحَمَّد ساسي البوني[3]

1- أول من أشار لهذه الرسائل هو المرحوم أبو القاسم سعد الله في مجلة الثقافة (س09، ع51، 1979، ص ص13-29).

2- يوسف باشا من أبرز باشوات الجزائر العثمانية فقد تولى الحكم ثلاثة مرات:(المرة الأولى سنة 1634م، والمرة الثانية سنة 1640م، والمرة الثالثة سنة 1647م)، وكان يستنجد به السلاطين في كل مرة لاخماد مختلف الأزمات السياسية والاجتماعية المنفجرة هنا وهناك، أنظر: (إبن المفتي: التقييدات - تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها - جمع وتعليق فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م، ص50-52).

3- من كبار علماء ومشايخ ووجهاء مدينة عنابة خلال العهد العثماني كانت له كلمة لا ترد عند العامة والحكام، وللمزيد من المعارف عن هذه الشخصة أنظر:(عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1987م، ص164).

- **تاريخ الرسالة:** سنة 1050هـ / 1641م
- **نوع الرسالة:** رسالة ديوانية[1]
- **رقم الرسالة:** 6724 بالمكتبة الوطنية باريس / فرنسا
- **لغتها:** اللغة العربية
- **أسلوبها:** واضح وسهل ومقروء
- **ملخص الرسالة:** يوسف باشا حاكم ايالة الجزائر يحث الشيخ مُحَمَّد ساسي البوني بلعب دوره في تحذير أهالي عنابة بعدم الانخراط في التمرد الذي قام به ابن الصخري بالشرق الجزائري.

الرسالة رقم 02 :

- **المرسل:** شيخ السنة والجماعة بمدينة عنابة مُحَمَّد ساسي البوني
- **المرسل إليه:** حاكم الجزائر يوسف باشا
- **تاريخ الرسالة:** سنة 1051هـ / 1642م
- **نوع الرسالة:** رسالة ديوانية
- **رقم الرسالة:** 6724 بالمكتبة الوطنية باريس / فرنسا
- **لغتها:** اللغة العربية
- **أسلوبها:** واضح وسهل
- **ملخص الرسالة:** الشيخ مُحَمَّد ساسي البوني يخبر الحاكم يوسف باشا بأنه سيسهر على إخماد هذا التمرد بكل الطرق، كما يستعطفه ويترجاه بأن يعفوا على سكان وأهالي عنابة الذين شاركوا في هذه الثورة إلى جانب ابن الصخري ضد الحاميات التركية .

الرسالة رقم 03 :

- **المرسل:** حاكم الجزائر يوسف باشا
- **المرسل إليه:** شيخ السنة والجماعة بمدينة عنابة مُحَمَّد ساسي البوني
- **تاريخ الرسالة:** سنة 1051هـ / 1642م
- **نوع الرسالة:** رسالة ديوانية
- **رقم الرسالة:** 6724 بالمكتبة الوطنية باريس / فرنسا
- **لغتها:** اللغة العربية

1- ويقصد بها الرسائل الصادرة من الديوان الملكي أو الحكومي، فهي رسائل رسمية ودبلوماسية أكثر منها ثقافية، أنظر: (أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، الجزائر، ص196).

- **أسلوبها:** واضح وسهل

- **ملخص الرسالة:** يوسف باشا حاكم ايالة الجزائر يرد على الشيخ والعلامة مُحَمَّد ساسي البوني بالايجاب وأنه سامح أهالي عنابة إجلالا وتقديرا لطلب الشيخ الذي لايرد مع حثه بضرورة توعية الرعية بعدم الخروج على الحاكم مرة أخرى.

ثانيا / القيمة التاريخية للرسائل الثلاثة:

أ / المعارف السياسية: تقدم لنا الرسائل الثلاثة بين مُحَمَّد ساسي البوني ويوسف باشا مجموعة من المعلومات السياسية القيمة عن تاريخ الجزائر العثمانية عامة وبايلك الشرق بصفة خاصة خلال القرن 17م، ونخص بالذكر حدثين هامين :

- محاولات تحرير وهران من القبضة الاسبانية:

حيث تعمد يوسف باشا في رسالته الأولى والثانية للشيخ مُحَمَّد ساسي البوني ذكر مصطلح الجهاد في سبيل الله عندما تحدث عن نيته بالجهاد في وهران وتحريرها من الاحتلال الاسباني، لكن هذه الثورة - ثورة ابن الصخري - عطلت مشروعه الكبير، والمدقق لهذا التوظيف من قبل يوسف باشا يستنتج بأن الحكام الأتراك كانوا يتعمدون إثارة هذه النقطة -أي الجهاد في الثغور واستعادة السواحل من الكفرة -كلما كان تمرد أو ثورة محلية ضد سياستهم الاقتصادية والعسكرية بالمنطقة.

حيث يسارعون لتبرير الإخفاق في التسيير وربطها بشاعة الجهاد في الثغور، وهذه القضية بدأت مع عروج وأخيه خير الدين بربروس ودامت مع حسن بن خير الدين وصالح رايس وغيرهم حيث تمكنوا من جلب الدعم خاصة من طرف العلماء ضد التمردات المحلية بتذكيرهم بأصل وجودهم بالجزائر ألا وهو تحرير سواحلها من القبضة الاسبانية، وهذه القضية انتهت مع تحرير وهران نهائيا سنة 1792م، والدليل على ذلك أن يوسف باشا تولى الحكم لثلاث مرات لكنه لم يحاول تحرير وهران من القبضة الاسبانية عكس مُحَمَّد بكداش ومُحَمَّد بن عثمان باشا الذين كانت لهما نية كبيرة في ذلك ونجحا في مسعاهما الأول سنة 1708م والثاني سنة 1792م.

- ثورة ابن الصخري ضد الأتراك:

تعتبر هذه الرسائل مصدرا مهما في التأريخ لثورة ابن الصخري، والتي غابت تماما عن المصادر المحلية، وذكرها فقط المؤرخين الأجانب في شاكلة فيرو وفايسات وبربروجر والأب دان في المجلة الافريقية .

حيث قامت هذه الثورة بين سنتي 1637-1642 ضد الأتراك، وكادت أن تعصف بالحكم العثماني بالجزائر نهائيا، وتعتبر أكبر ثورة محلية ضد الأتراك من حيث التنظيم والشمولية باعتبارها شملت أجزاء كبيرة من منطقة الشرق الجزائري والجنوب.

وقد بدأت هذه الثورة عندما قام مُحَمَّد بن الصخري بن بوعكاز قائد عرب الذواودة بزيارة مراد باي حاكم قسنطينة سنة 1637م إلا أن مراد باي أمسك به واتهمه بالتمرد عن سلطة البايلك، وراسل علي باشا والديوان في أمره حيث أشاروا عليه بقتله هو وابنه وستة من أعيان عرب الذواودة، وتعليق رؤوسهم في مدخل مدينة قسنطينة.[1]

وبعد تنفيذ الحكم الصادر عن الباشا وديوانه بدار السلطان أعلن أحمد بن الصخري شقيق قائد عرب الذواودة المغتال الثورة على الأتراك، ولأن المشاكل والكوارث لا تأتي فرادى فقد تزامنت هذه مع إعلان قبيلة الحنانشة التمرد على الأتراك في سنة 1638 بعد قيام الرايس علي بتشين بتهديم حصن الباستيون المستغل تجاريا من طرف الفرنسيين بالشراكة مع الحنانشة، وبذلك تفرقت القوات التركية بايلك الشرق بين ثورتين كل منها تضم عدة قبائل من أشد الفرسان، ولايخفى على أحد بأن سنة 1630 شهدت الجزائر ثورة أخرى عارمة وهي ثورة الكراغلة[2] هذا على المستوى الداخلي للجزائر، وأما على المستوى الخارجي فقد عرف الأسطول الجزائري في هذه المرحلة بقيادة الرايس علي بتشين انكسارا بمنطقة فالونا (قرب ألبانيا)[3]، وأمام هذا الوضع المتأزم إضطر السلاطين الأتراك لإزاحة علي باشا من الحكم وأستنجدوا بيوسف باشا للمرة الثانية باعتبار أنه تولى الحكم من قبل مابين (1634-1637).

ب/ المعارف الثقافية: تقدم لنا هذه الرسائل الثلاثة مجموعة من المعطيات الثقافية التي تخص الجزائر العثمانية خلال القرن 17م أبرزها:

- المستوى الثقافي للحكام وعلاقته بالعلماء:

تطرح قضية علاقة الحكام الأتراك بالعلم والعلماء بقوة في مختلف الدراسات الأكاديمية بالجزائر، فالكثير من هذه الدراسات تعمم حكمها على الأتراك باهمال العلم ومؤسساته واهتمامهم فقط بالجانب العسكري[4]، مع اغفال بعض النماذج التي سجلت مواقف ثقافية مشرفة، ومن بينها يوسف باشا الذي كان يقدر العلماء ويبجلهم ويمنح لهم المناصب العليا والامتيازات.

فمن خلال هذه الرسائل نجد يوسف باشا يستعمل عدة مصطلحات تبجيلية للعلامة مُحَمَّد ساسي البوني حيث يصفه بـ : سيدي، الفقيه، الصالح، الناصح، الولي، العارف بالله، المخلص، التقي، سيد

1- جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلكالشرق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015م، ص337-338.

2- للمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة يرجى الاطلاع على: (حمدان خوجة: المرآة، تحقيق وتعريب مُحَمَّد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص154-155).

3- صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي، ط2، دار هومه، الجزائر، 2007م، ص122.

4- سعاد لبصير: " دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني 1516/1830م "، ضمن (سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر)، منشورات مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008م.

المسلمين، شيخ السنة والجماعة، البركة...، كما نلاحظ أيضا أن يوسف باشا تعمد استعمال بعض المصطلحات التي لها دلالة دينية على الرعية منها مصطلحات: الاستخارة والاستشارة، وهنا يقصد استخارة الله سبحانه وتعالى في هذه القضية أي ثورة ابن الصخري، والاستشارة معناه أنه ليس وحده من يتخذ القرار بل له مجلس استشاري يعود إليه في صغائر الأمور وكبائرها.

كما عاد لحادثة تاريخية مهمة وهي قبول الصحابي أبي أيوب الأنصاري أن يكون تحت إمرة يزيد بن معاوية عند الحملة العسكرية على القسطنطينية والتي استشهد فيها أبي أيوب، فرغم أنه كان كبير السن وله وجاهة وعلم وصحبة مع النبي عليه الصلاة والسلام إلا أنه خشي على الأمة من فتنة الانقسام والتمرد، فقبل بأمر تولي يزيد إمارة الجيش رغم صغر سنه وقلة حنكته العسكرية، وهذا إقرار منه - يوسف باشا - بطريقة غير مباشرة بأن يزيد ليس أهلا بأن يكون قائدا على أبي أيوب الأنصاري وكذلك هم الأتراك بأنهم ليسوا على مستوى عالي لحكم الرعية إلا أنه تفاديا للفتنة يجب على الرعية بالجزائر قبول حكمهم ولو على مضض.

ونلاحظ من خلال هذه الرسائل بأن يوسف باشا جند العلماء في هذه الثورة حيث راسل الشيخ مُحَمَّد بن رأس العين الأندلسي الباب العالي يصف لهم الجزائر وحالها حيث يمدح الباشا يوسف وقوة الجيش العثماني بها فيقول (مابغي عليهم باغية إلا خاصموه ولا طاغية إلا حاربوه فهزموه وقصموه ... ونغص العيش طاغية من طواغي البادية - يقصد ابن الصخري - فعظم الخطب وحلت الداهية)، كما قام العلامة مُحَمَّد ابن أقوجيل[1] بترأس وفدا من العلماء والأعيان وتوجه به إلى مدينة إسطنبول من أجل موافقة السلطان العثماني على تعيين يوسف باشا حاكما للجزائر لولاية ثانية بعدما لمسوا عدله وحزمه في ولايته الأولى (1634-1637م)، ونجحوا في مسعاهم حيث عين يوسف باشا مرة ثانية وحكم مكان علي باشا (1640-1642م) .

ومن العلماء الذين ساعدوا وساهموا في اخماد ثورة ابن الصخري ووقفوا في صف يوسف باشا علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي[2] الذي يعتبر من أكبر علماء المغرب الأقصى الذين لقوا المكانة والحضوة لدى يوسف باشا، فقد منحه خطة التدريس والإمامة، وهذا ما جعله يختار مدينة الجزائر كمستقر نهائي له إلى غاية وفاته بها سنة 1647م، فقد ساهمت إتصالاته بعلماء وأعيان الشرق الجزائري في إخماد ثورة إبن الصخري.

1- هو الشيخ مُحَمَّد بن علي أقوجيل الجزائري توفي سنة 1669م، أنظر: (مُحَمَّد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق مُحَمَّد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص75).

2- علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي: وهو من علماء المغرب الأقصى إستقر بمدينة الجزائر أيام يوسف باشا وكانت لديه مكانة مرموقة عند حكام الجزائر، وتصدر للتدريس بها، أنظر: (عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات، ج2، ط2، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م، ص775؛ رضا كحالة:معجم المؤلفين،ج2، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993م، ص471).

كما استعان يوسف باشا بالعلامة يحي الشاوي[1] الذي كان فخر الجزائر وعالمها، وكذلك بالعلامة سعيد قدورة[2] فرغم أنه مالكي المذهب إلا أنه نال حضوة كبيرة عند يوسف باشا، فقلده مناصب الإفتاء والخطابة والتدريس بالجامع الكبير إلى جانب وكالته على أوقاف المسجد ثم تقلد أولاده من بعده أحمد ومُحَمَّد هذه المناصب.

من دون أن ننسى عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية[3] حيث حل يوسف باشا بقسنطينة سنة 1640م ومكث بها سنة كاملة إلتقى بالفكون، وجدد له وظائف أبيه في الامامة والتدريس والخطابة وشيخ الاسلام وقلده إمارة الحج، وهي هدية قابلها الفكون بمجهود جبار مع سكان المدينة حتى يفشلوا ثورة ابن الصخري.

ومقابل ذلك نلمس من خلال رسالة مُحَمَّد ساسي البوني نظرة المرابطين والعلماء الجزائريين إلى الحكام الأتراك حيث نجده يصف يوسف باشا بعدة أوصاف لا تطلق عادة إلا على الأباطرة والملوك والخلفاء منها : المعظم، الصدر الشهير، القدر المنير، الأجل، سيف الدين. كما نجده يستعطف يوسف باشا بعبارات فيها إذلال حين ترجاه بأن لا يغير على مدينة بونة ومن خلالها نستنتج الشخصية الصوفية للبوني حيث كان يركز على مصطلحات الصبر والعفو والسماحة ...

كما تعد هذه الرسائل مصدرا أدبيا رفيع المستوى خلال العهد العثماني فهي تصنف ضمن الرسائل الديوانية التي تكون مرسلة من طرف الحكام، وتمتاز بقوة الأسلوب ومتانة اللفظ وقوة التعبير ونزعة الدين من خلال الاستشهاد بالآيات القرآنية والقصص والحوادث التي وقعت في عهد الخلفاء الراشدين[4].

كما هي مزودة بالسجع والجناس والمحسنات البديعية والانشاء، كما نستنتج بأن يوسف باشا كان له مستشار وكاتب (خواجة) من مستوى عالي وهذا الأمر لم يحدث مع غيره من الحكام الأتراك باستثناء مُحَمَّد بكداش ومُحَمَّد بن عثمان باشا. ومن خلال تدقيقنا في محتوى الرسائل وأسلوبها وصلنا إلى نتيجة مفادها أن الكاتب الخاص والمستشار الذي كان يخط الرسائل ليوسف باشا ماهو إلا عيسى الثعالبي عالم الجزائر النحرير في القرن 17م، والذي كان معه أيضا في ثورة ابن الصخري حيث راسل وهو مرابط مع يوسف

1- كان فخر الجزائر وعالمها ومن بين أكبر المقربين والداعمين لباشاوات الجزائر والمدافعين عن سياستهم خاصة يوسف باشا، أنظر: (أحمد مريوش: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م، ص120).

2- وتعود أصوله إلى تونس قدم لمدينة الجزائر واستقر بها، ورغم أنه مالكي المذهب إلا أنه نال حضوة كبيرة عند حكام الجزائر، فقلدوه مناصب الإفتاء والخطابة والتدريس بالجامع الكبير إلى جانب وكالته على أوقاف المسجد ثم تقلد أولاده من بعده أحمد ومُحَمَّد هذه المناصب، أنظر: (إبن المفتي: المصدر السابق، ص95-97).

3عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص07.

4- صالح عباد : مرجع سابق، ص125-126.

باشا من منطقة نقاوس - ولاية باتنة - الشيخ والفقيه علي بن مُحَمَّد ساسي البوني برسالة يخبره بتفاصيل الثورة، وهنا نكتشف الشبكة التي كانت تنسج بين العلماء في مختلف النواحي التي كان يعتمد عليها يوسف باشا.

ولاقرار مكانة العلماء عند يوسف باشا ما ذكره الرحالة المغربي العياشي والذي تتلمذ على يد عيسى الثعالبي في الحجاز، فمن كثرة حديثه عن يوسف باشا حتى تأثر به العياشي وقال فيه (كان ذا همة عالية وشهامة تركية ومع ذلك يحب العلماء ويفهم بعض مقاصدهم معظم مكانة شيخنا أبي محمدي - يقصد عيسى الثعالبي - وكان من جملة خواصه إلى أن وقع للأمير المذكور ما أوجب عزله عن الولاية ... فكان شيخنا في صحبته في كل ذلك إلى أن وقعت أمور وأمور ...)[1]

- مكانة أسرة البوني : أسرة البوني كما يقول أبو القاسم سعد الله جمعت بين العلم والصلاح وسيطرت روحيا على عنابة ونواحيها لمدة طويلة بلغت القرنين من (مُحَمَّد ساسي إلى ابنه قاسم مرورا بحفيده أحمد وصولا لحفيد ابنه الزروق)[2]، فإلى جانب مُحَمَّد ساسي البوني الذي كانت له مكانة عند باشوات الجزائر هناك أولاده وأحفاده أيضا كانوا سندا ودعما للباشوات والديات في المنطقة منهم :

- علي بن مُحَمَّد ساسي البوني: وقد كان عالم عنابة بعد أبيه مُحَمَّد ساسي وذلك من خلال رسالة بعث بها تلميذه عيسى الثعالبي لصديقه وأستاذه علامة عنابة علي بن مُحَمَّد ساسي البوني يخبره بأنه رافق يوسف باشا في حملته ضد ابن الصخري، وقد ذكره أيضا في كتابه كنز الرواة حينما يذكر شيوخه الذين تتلمذ عندهم [3].

- قاسم بن مُحَمَّد ساسي البوني: هو والد العلامة أحمد وكان من أتباع الطريقة الشاذلية كوالده مُحَمَّد ساسي، ويذكر كارل بروكلمان أن له مؤلف في الحديث سماه (المنحة الالهية في الآيات الاسرائيلية) [4].

- أحمد بن قاسم بن مُحَمَّد البوني: وصلت عدد مؤلفاته إلى المائة حتى وضع حولها كتاب سماه (التعريف بما للفقير من التواليف) من دون احتساب المنظومات الشعرية، ولد أحمد البوني سنة 1650م وتوفي سنة 1726م، تنقل بين المدن الجزائرية مدرسا ومعلما ثم انتقل إلى تونس ومصر وأجاز بعض علمائها مثل حسن بن سلامة الطيبي في الحديث، وترك رحلة حجازية مفقودة لحد الآن سماها (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية)، وكانت له مراسلات عديدة مع باشوات الجزائر مثل: مُحَمَّد بكتاش والباشا حسين خوجة

1- عبد الله العياشي: الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسماة ماء الموائد، ج2، ط1، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011م، ص170.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص68.

3- أحمد بن قاسم البوني: التعريف بمونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تعليق سعيد دحماني، دار الهدى، الجزائر، 2001م، ص32-35.

4- أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ط3، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص49.

الشريف، وأخذ عنه علامة المغرب الأقصى الشيخ الجامعي بمدينة عنابة والذي وصفه في رحلته (نظم الدرر المديحية) بالشيخ الرباني العالم العرفاني، وقد ذكر أحمد بأنه أخذ علم الحديث عن والده قاسم البوني [1].

- مُحَمَّد التوسي بن أحمد بن قاسم البوني: من علماء عنابة له شرحا للامية العجم لصاحبها الحسين بن علي الطغرائي، وبعد فتح وهران وتحريرها راسل العلامة مُحَمَّد بن أحمد البوني الداي مُحَمَّد بكداش بمجموعة من أشعار مدح [2].

نص الرسالة 01 :

من يوسف باشا الى مُحَمَّد ساسي البوني المؤرخة في شهر ذي الحجة 1050هـ/ مارس 1641م.

(مراسلة يوسف باشا بعث بها إلى الشيخ سيدي مُحَمَّد ساسي نفعنا الله به آمين بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وصلى الله على سيدنا ومولانا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم: من عبد الله الموفق بالله الغالب بعزته أبي الجمال يوسف باشا فتح الله له من أمكن التمكين ما شاء إلى سيدي الفقيه الصالح الناصح الولي العارف بالله المخلص إليه السريرة الدال على الله الداعي إليه على بصيرة أبي عبد الله سيدي مُحَمَّد ساسي قوى الله مدده وأكثر حزبه وعدده سلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الخير والعافية والتوجه إلى الله تعالى في إصلاح خلل هذه الأمة بألسنة ضارعة وقلوب صافية والتوسل في ذلك بجاه إمام حضرة الصفا ومقدم أهل الاصطفا ومحدوم من في الأرض والسماء، والمنفرد من بين أهل الاختصاص بجلائل الأسماء سيدنا مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ثم بدعوات أمثالكم من الأولياء ولخطاب أشباهكم من الأتقياء.

هذا والمراد إعلامكم أنا كنا أولا برمنا عقد العزم على الجهاد لوهران واستخلاصها من أيدي حزب الشيطان، وإنقاذها من ورطة الكفر والضلال، وإنارتها بنور الإيمان والإسلام وصالح الأعمال، حتى عرض لنا ما حال بيننا وبين هذا الغرض وصد عزائمنا عن إزالة ذلك المرض.

وهو ما لا يخفاكم من اختلال أمور المسلمين بذلك الصقع - يقصد قسنطينة - وكثرة الخلاف والشنآن وسائر أنواع الاختلال المذمومة بالشرع الممجوجة بالطبع، واندراس آثار الطاعة السلطانية التي هي طاعة الله ومحو مراسمها وتشييد قواعد البغي والتسويلات الشيطانية وايضاح معالمها، وتنكير المعارف وتعريف المنكرات ورفع المخفوضات وخفض المرفوعات، فتركنا مكنون العزم الجهادي في صدفه وأخرناه إلى أن يحل بدر ظهوره منازل سعوده وشرفه.

1- أحمد بن قاسم البوني: الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تحقيق وشرح مُحَمَّد لخضر بوبكر وسعيد دحماني، دار الوسام العربي، عنابة، 2011م، ص29.

2- مُحَمَّد بن ميمون: المصدر السابق، ص174-176.

ورأينا بصائب النظر وما أوجبته صحائف الأثر أن تقديم الأهم فالأهم هو المحمود العواقب المحصل لجميع المقاصد والمطالب، فجردنا العزم بحسب ما اقتضاه الحزم بعد أعمال سنتي الاستخارة والاستشارة واستنجاح قضايا الرياسة والامارة، بأن نتوجه نحو قسنطينة ومن إليها وبعدها ان شاء الله بسكرة وما لديها لإمعان النظر في مصالح الرعايا وإخماد نيران الفتنة، ودفع البلايا وسماع الشكوى، والقضاء بما تحتويه أحكام التقوى وتوفيق الكلمة، وجمع الأمة المسلمة وإظهار الحق ومحو الباطل، وتوقير العالم وإرشاد الجاهل، وتمهيد القواعد وتشييد المقاصد، وضبط الفوائد وإصلاح المفاسد، وتفقد أحوال الجباة والحكام والولاة، وإيضاح معالم الهدى واعفاء مراسم الردي.

ورأينا أنه لا ينحي مع الله فيما قلدنا من أمور خلقه إلا أن نباشر ذلك بأنفسنا طلبا لمرضاته وقياما بحقه، وكاتبناكم بجميع هذا رضي الله عنكم لتعلموا حقيقة أمرنا وتطلعوا على خبية سرنا، ولتخبروا من هنالكم بالمرام وما عولنا عليه من إصلاح أهل الاسلام، فلتخولوا رضي الله عنكم الخاصة والعامة بالذكرى والموعظة الحسنة، كدأب العلماء في طريقتهم المثلى وسيرتهم المستحسنة، فان الملة الاسلامية لا يستقيم دينها ودنياها في قصوى مقاصدها ودنياها إلا بسنان الولاة ولسان الهداة، فردوا شاردهم إلى الله تعالى بالدعاء والعدوة، ولكم في نبيكم عليه الصلاة والسلام وأصحابه أسوة.

وقد قاتل أبي أيوب الأنصاري تحت راية يزيد وأمثاله من الأعيان، وصلى عبد الله بن عمر خلف الحجاج وبايع ابن مروان، وانما فعلوا ذلك لئلا ينزعوا يدا من طاعة، أو يخرجوا قيد شبر من السنة والجماعة، ولا يشاقوا الله ورسوله لمنازعة سلطان، ومعاونة على اثم وعدوان رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله (ألا إن حزب الله هم المفلحون) - المجادلة 22 -، ولو كان الخطاب مع غيركم لهديناه إلى نقول، وألقينا له حجج المعقول والمنقول، لكن أنت اليوم والحمد لله سيد المسلمين في تلك الأقطار، وشيخ السنة والجماعة الذي عليه المدار أبقاكم الله بركة في البلاد ورحمة للعباد آمين.

وكتب بتاريخ أوليات ذي الحجة الحرام سنة 1050هـ عرفنا الله تعالى خيره وما بعده كملت بحمد الله تعالى وحسن عونه)[1].

نص الرسالة 02 :

من الشيخ مُحَمَّد ساسي البوني إلى يوسف باشا المؤرخة في شهر محرم 1051هـ / 1642م.

(الحمد لله مراسلة بعث بها العالم العلامة القطب الرباني سيدي مُحَمَّد ساسي للمعظم أبي الجمال السيد يوسف باشا يستشفع في أهل بلد بونة وهذا لفظها : الحمد لله الذي أجرى بين الكاف والنون ألطافا، وجعل

1- أبو القاسم سعد الله: (أربعة رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة)، مجلة الثقافة، س09، ع51، وزارة الاعلام والثقافة، الجزائر، ص21-23.

البرايا لسهام البلايا أهدافا، فطوفهم تحمل أعباء صعوبتها، فاذا منهم أسود رجال لا تستفزهم الآلام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها حمدا يستنزل رحمة تجلى عن القلوب أدران كؤوبها، وتستكشف غمة أشجان كروبها، فهو الذي لا يخلي عباده من صنع تنطوي عليه أثناء النكبات إذا طرقت بضروبها، ولطف بهم يلين لهم صعوبات الخطوب إذا جمحت بغروبها، والصلاة والسلام الأكملان الأتمان على من فتحت بذكره الدعوات، وانكشفت بالصلاة عليه البلوات، فاستسهلت شدائد صعوبها سيدنا ومولانا مُحَمَّد المالك زمام الهدى والتقى، والدال على ما هو خير وأبقى الذي به إشراق شمس الانتظار بعد غروبها، وعلى آله وأصحابه مقاليد قصد أولي الضير ومفاتيح نيل مطلوبها، ومناهج عزائم أولي الصبر ومفاتيح بلوغها مرغوبها .

هذا وقد إختلس العبد هذه الكلمات، والله يعلم منه كيف الحال هاربا بضعفه لنزول رحمته وهبة عطفه سبحانه الكبير المتعال، بأن يزيل ما ألم بنا من ألم ما نتلقاه من أخبار عنكم تنسد لها المسامع، وترتج لها الأضالع، ونسأل الله سرعة تبدلها بأنباء تقر بها العينان، وتلتذ بها الأذنان، وتنشرح بها الأذهان الجناب الأرفع المرغوب له من الله تعالى تعجيل شمس مسرته بلا توان، وشمول نصرته بأقرب أوان الصدر الشهير والقدر المنير المعظم الأجل محبنا لله ورسوله عز وجل المطلوب منه له تيسير ماشاء سيف الدين أبو الجمال يوسف باشا سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

موجبه إليكم قد بلغ العبد ما أنفذه الله وقضاه، وقدره بحكمه في خلقه وأمضاه، وألزمنا التمسك بعصمة الصبر التوعد من الإعتراض عن مالك الأمر، وجعل فسحة لذوي الابتلاء في التوسل بجاه صدوق الأنبياء في سرعة الانقضاء، فآه ثم آه أعيدها مترجيا متأسفا، وأرددها متوجعا متلهفا، ولتعلم أعزكم الله أن كل شدة مآلها إلى الارتخاء، وأن كل غمة انتهاؤها إلى الانجلاء، وغاية كل متحرك إلى السكون، ونهاية كل متكون دنيا إلى أن لا يكون، وكم كربة أورثت خيرا، وكم مر شوكة اجتنيت ثمرا، وما المحن إلا سيل بليل، والسيل إذا وقف انصرف، وإن بعد الكدر صفوا، كما أن عقب المطر صحوا، وكما أن الله ينزل قدره من حيث لا يرتقب كذلك يرسل لطفه من حيث لا يحتسب، والشمس بعد كشف نورها تستضاء، والبدر إثر الخسوف يستزاد صفاء.

نعم إن ما عليه من التلوينات إنما هي لأسمائه الحسنى مستظهرا، وهي منه إليهم تعريفات فمن تعرف إليهم بأسمائه الجمالية الفضلية فمقتضى الحق منهم الشكر، ومن تعرف إليهم بأسمائه الجلالية القهرية فمقتضاه منهم الصبر، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن كمل فيها بمشاهدته حتى لا يلتفت إلى سواه عند تنقيص مراداته بمنه وكرمه آمين يا رب العالمين.

وها هو العبد الفقير ليس بناس لكم ودا، ولا بناكث عهدا، ولا يزال سائلا لكم من الله قابل التوب وغافر الذنب تليين صعاب القلوب، وتسهيل الصعوب بجاه أكرم الوسائل لكل سائل تحصيل كل مطلوب،

وبلوغ كل مرغوب سيدنا ومولانا مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام الذي به الغنى عند كل محبوب، وأختمه مصليا عليه مسلما صلاة منجية من جميع الأهوال والآفات مطهرة من جميع السيئات قاضية جميع الحاجات رافعة أعلى الدرجات مبلغة أقصى الغايات من جميع الخيرات في الحياة وبعد الممات، وعائدة عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى كل من أضحى بحضرتكم أنيسا، وفي أرباب الصدور رئيسا ممن تقدم له الكتب إليكم قبل هذا بمثله العبد الفقير إلى مولاه الغني مُحَمَّد ساسي بن براهيم وفقه الله بمنه آمين آمين آمين)[1].

نص الرسالة 03 :

من يوسف باشا إلى الشيخ مُحَمَّد ساسي البوني المؤرخة في شهر صفر 1051هـ / 1642م

(وهذا جواب المعظم يوسف باشا: الدوحة التي طالبت فروعها وأصولها، والنبعة التي زكت أجناسها وفصولها، والسيادة التي أسست على قواعد الولاية مبانيها، والمادة التي طابقت مناهج الاستقامة ألفاظها معانيها سيادة الولي الصالح البركة العارف بالله المسارع في مرضات الله أبي عبد الله سيدي مُحَمَّد ساسي أدام الله بركاته، وأعلى في مدارج الاكمال رتبته سلام عليكم ورحمة الله وبركاته عن الخير والعافية والتماس صالح دعوات أمثالكم من أولياء الله بتضرعات صادقة، وقلوب صافية، والسؤال عنكم وعن أحوالكم يسر الله لنا ولكم أسباب السعادات، وبلغنا وإياكم من مرضاته جميع المرادات .

هذا ولقد انتهى إلينا كتابكم البهي، وخطابكم الشهي، وما احتوى عليه من طلب العفو عمن ظلم، والتجاوز عمن أساء واجترم، فلتعلم رضي الله عنكم أن العامة لا تعرف حقائق المذاهب، ولا تنظر عواقب المثالب والتجارب، وقد علم من كلام الحكماء وأمثال العلماء: مكن موضع رجليك قبل مشيك، وتأمل عاقبة فعلك قبل سعيك، فان من استضاف الأسد قراه أظفاره، ومن حارب الدهر أراه اقتداره، ومنازعة الملوك تسلب النعم وتوجب لصاحبها فضيع النقم، ولا يخفاكم ما أساء به من فضول الكلام الموجب لشنيع الملام لأن من قال ما لا ينبغي سمع ما لا يشتهي، ومن فعل ما شاء لقي ما ساء، وقد استوجبوا بفعلهم ذلك التأديب الشنيع، والتعزيز الفضيع لولا مراقبة الله تعالى وجوهكم .

فالآن الأمر هو ما شفهناكم به من ترك ما تركنا، وتأخير ما أخرنا، والواجب عليكم رضي الله عنكم أن تكون أحوالنا منكم ببال، وأن لا تدعونا في زوايا الاهمال، وأن لا تنسوا أمة نبيكم عليه الصلاة والسلام من دعاء الخير في الخلوات وأعقاب الصلوات، والتعريف بما يجب عليكم من حقوق السلطان، وأن طاعته من طاعة الرسول وطاعة الرحم،ن فإليكم معشر أهل العلم يتوجه هذا الفرض بالخصوص، وأنتم أجدر بما فيه من مقيس مستنبط ومنصوص، والدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة

1- أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ص23-25.

المسلمين وعامتهم)، والله الموفق لما فيه رضاه لا رب غيره ولا معبود سواه، وكتب بتاريخ أوليات صفر الخير سنة 1051هـ)[1].

مما سبق تقديمه يمكن القول أن علاقة الفقيه بالسياسة في الجزائر العثمانية تميزت بعدة خصائص نذكر منها :

- أن حكام الجزائر خلال العهد العثماني كانوا منفردين بالآراء والقرارات، ولا يسمعون للعلماء والفقهاء إلا في الأوقات الحرجة عندما تكون سلطتهم مهددة سواء داخليا أو خارجيا.

- أن معظم هؤلاء الفقهاء والعلماء كانوا يخشون بطش وجبروت الحكام، وبذلك يلجأون للمداهنة والتزلف من أجل قضاء مآربهم الشخصية والعائلية.

- إن شبكة ومنظومة الأسر العلمية والدينية التي نصبها الباشوات والبايات بمختلف المدن الجزائرية آتت أكلها وذلك من خلال إطالة عمر الحكم العثماني بالجزائر (1518- 1830).

- لقد كان الجهاد وحماية الثغور هو الشماعة البارزة التي يعلق عليها الحكام اخفاقاتهم الخارجية وسياساتهم الخاطئة داخليا اتجاه الرعية.

- لا يمكن الجزم بمطلق الأمور بأن الحكام الأتراك بالجزائر أهملوا العلم والعلماء، والدليل بعض الباشاوات والدايات والبايات الذين خصصوا جزءا كبيرا من فترة حكمهم ومالهم لخدمة العلم وأهله، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر كل من : يوسف باشا، مُحَمَّد بن عثمان باشا، مُحَمَّد بكداش، صالح باي، الباي مُحَمَّد الكبير...

- المساهمة الكبيرة والخدمات الجليلة التي قدمها بعض العلماء والفقهاء والمتصوفة للحكام لم تكن بالمجان بحيث أنهم استفادوا من مختلف المزايا والعطايا المادية والمعنوية، وذلك من خلال احتكارهم لعقود طويلة لمناصب علمية ودينية رفيعة كالفتوى والقضاء والامامة والخطابة وشيخ الجماعة وصرة الحرمين الشريفين...

1- أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ص25- 26